المرتكزات الأساسية التي حفظت للأمة وحدتها

عرفان عبد الحميد فتّاح*

طالما شغل المؤرخون أنفسهم وأجهد المفكّرون عقولهم في البحث عن أسباب انهيار الدولة الإسلامية، وسقوط الخلافة، وانحسار سيادتها، وركود العقل الإسلامي وعقمه وتراجعه عن مواجهة التحديات، وعجزه عن تطوير أبنيته الفكرية ومؤسساته الثقافية التي أصابها الجمود والركود والخمود. وانتهت اجتهاداتهم إلى تشخيص الأمر في جملة أسباب متنوعة ومتباينة تقف وراء ذلك كلّه، ولسنا هنا بصدد البحث فيها، فقد دوّنت عنها وحولها مدوّنات لاتكاد تحصى، تنتهي في محصّلتها النهائية، إن نحن مكّنا لها، إلىأن تقتل البقية الباقية من شعورنا بذواتنا، وتغتال وعينا بأننا أمة حمّلها الباري تعالى رسالة، هي الرحمة المهداة لبني الإنسان. على أننا لانكاد نظفر بمن جَهَدَ نفسه في البحث عن المقوّمات والأسباب التي حفظت لأمة الإسلام استمرارها التاريخي، وللفكر الإسلامي دفقه وتواصله، وللمجتمع الإسلامي دواعي استمراره في

* دكتوراه في الفلسفة الإسلامية من جامعة كمبريدج ١٩٦٥م، أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي بقسم أصول الدين، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

البقاء بخصائصه ومميزاته الثقافية والروحية، على الرغم من غياب القوّة المادية وانحسار الغلبة والسيادة والسلطان، وتداعي الأمم المخاصمة له عليه، من كل حدَب وصوب.

وفي هذه الدراسة ـ التي هي **مخطط أولي وتمهيدي لاغير**، لايراد به إلا استثارة همم الباحثين المخلصين المصطفين، من علماء الأمة ـ إنما نحاول استقصاء بعض المقومات والمرتكزات الأساسية التي كفلت للأمة، في قناعتنا، استمرارية وجودها، على الرغم من كل المعوّقات التي كان من شأنها ـ مسايرةً لمنطق التاريخ ـ أنْ تلغي وجودها بوطأتها، وتنهي بقاءها بضراوتها، وتقضي على وحدتها المعنوية والروحية بقساوتها، فتصبح من الأمم المنقرضة البائدة التي تقرأ عنها ولا ترى لها وجوداً على ساحة التاريخ وميدانه وحركته، لعّلنا إن نحن شخصناها واجتهدنا مخلصين في انبعاثها من جديد، أدركنا ما كنا عليه من قوة الفعل وانتشار السيادة وعظمة السلطان، واكتشفنا سرَّ الحركة الجوهرية لتاريخنا الذي بلغ ذرا تألقه المعنوي وسموّه المادي، في بضع سنين، لاتكاد تعد في عمر الزمان زمناً.

فبعد انتقال الرسول القائد الرائد المربّي، عليه أفضل الصلاة والسلام؛ إلى الرفيق الأعلى عام ٦٣٢م بست سنوات تم فتح القدس الشريف؛ وفي عام ٦٤٠م استكمل المسلمون فتح مصر بكاملها، وفي عام ٦٤١م أنهت معارك الفتح في القادسية ونهاوند دولة الفرس الأكاسرة ؛ وفي عام ٦٧٠ م تم فتح شمالي إفريقية وبناء مدينة القيروان، لتكون قاعدة انطلاق لجيوش الفتح، وفي عام ٧١١م سقطت دولة القوط بأسبانيا، وصارت الأندلس من بعد ذلك لؤلؤة الأمصار الإسلامية طرّا.

وهكذا ألغى الفتح الإسلامي في نصف قرن تقريباً وجود أكبر إمبراطوريتين سياسياً، والأهم من ذلك عقائدياً وثقافياً، الأمر الذي لا و لم يجد له المؤرخون سببا به يفسرونه، أو ينسبونه إليه، وكأنه معجزة خرقت كل الأسباب المادية المعتادة التي يتوسل المؤرخون بها عادة لتفسير الأحداث والوقائع. وفي تقديرنا المتواضع فإن من أهم الأسباب والمقوّمات والمرتكزات التي هيأت للأمة المسلمة انطلاقتها المعجزة وحفظت من بعد لها وجودها، ما يأتي:

أولاً: القدرة الفطرية الموروثة للإسلام على التوسع والانتشار

إن الإسلام: بوصفه دعوة ربّانية، ورسالة سماوية، وهوية ثقافية، ودائرة حضارية كبرى، لايجيز الدخول في إطار عقيدته، والالتزام بقواعد شرعه، بالإكراه والإلجاء، صدوراً عن قاعدة كلية ومبدأ عام أثبته القرآن الكريم، مقتضاه: أنَّ الإيمان، الذي هو التصديق الجازم بالقلب، قضية داخلية في النفس الإنسانية، ومن ثم فإن الإكراه عليه قسراً وإجباراً، يسوق لامحالة إمّا إلى تَحيُّن الفرصة المواتية للردّة، وإمّا إلى للتعبير عن السخط وغياب القناعة بالتظاهر الكاذب والنفاق، تقية على النفس من المهالك، ومن هنا جاءت الحكمة البالغة في رفض القرآن الكريم المطلق للإيمان إكراهاً، فقال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾ (البقرة:٢٥٦)، وقال تعالى محذّراً نبيَّه المبعوث رحمةً للعالمين: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الذِينَ لاَيَعْقِلُونَ﴾ (يونس:٩٨-٩٩) وينبّه الربُ تعالى نبيه إلى مهمته التربوية في التذكير والتبليغ ﴿فَذَكِّرْ إِنَمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢١-٢٢)، أي حتى تكرههم على الإيمان، قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: لست عليهم بجبار، أي لست تخلق الإيمان في قلوبهم[١]. وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٧١).

ومع منع الإسلام الإيمان إكراهاً وجبراً، فإنه قد ترك الباب مفتوحاً أمام الناس جميعاً للدخول فيه بمجرد إعلان المهتدي إليه عن إسلامه، طواعية، وعن نظر وتدبر، وقبوله بقواعد شريعته اختياراً، والالتزام بقيمه الأخلاقية عن رضىً وقناعة، ومن ثم

---

١ انظر الإمام ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (بيروت: دار اليوسف، طبعة منقحة ومراجعة، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م)، ٤/٤٥٧.

الالتحام ببُنْية الأمة وشريعة الله،من غير حواجز ومراسيم معقدة مضطربة[٢] تحول بينه وبين أن يصير الفرد من أمة الإسلام، بلا تمييز مرده اختلاف الأعراق والألوان واللغات، وغيرها من الحواجز والموانع القاطعة، فالإسلام، كما هو معروف في علوم الفقه وأصولهِ، يَجُبُّ ما قبله، وبالاهتداء إلى عقيدته يولد المرء ولادة معنوية جديدة، ويبدأ مسيرة مقطوعة عما سبقتها، لأنه دعوة الحق تعالى للناس أجمعين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم.

فالقرآن الكريم: دعوة وبيان وبلاغ وبصائر للجميع بلا تخصيص ومن غير استثناء، قالى تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُـدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٨)، وقال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية:١٩)، وقال تعالى: ﴿هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ﴾ (ابراهيم:٥٢) وقال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ (الأعراف:١٥٨). وبهذه الخاصية التي تفرّد بها الإسلام، فقد ضَمِنَ لدعوته ميزتين مهمتين وخطيرتين، هما: العالمية (Universalism) والمساواتية المطلقة (Egaliterianism)، اللتين اسقطتا من الاعتبار حواجز الجنس واللغة والأعراق.

وهكذا التحم الداخلون في هديه وشريعته بحملة الرسالة الاولين من العرب، إمّا نسباً، أو لغةً، أو مسكناً، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته (اقتضاء الصراط المستقيم)[٣]. وصار المؤمنون الجدد من أهل العربية، لا لاعتبارات جنسية أو عرقية، وإنّما لأن العربية أضحت عقلاً ودينا وخُلقاً، فهي منهج في الفكر، وهوية ثقافية

---

٢ للدخول في اليهودية ـ مثلاً ـ شروط معقدة خاصة عند أتباع المذهب الأرثوذوكسي منهم، من ذلك وجوب أن يتم إعلان المرء عن يهوديته أمام مجلس ديني مؤلف من ثلاثة من الربانيين(bet den)، ووجوب أن تغطس الأنثى عاريةً بالتمام في الحوض المقدس (mekveh)، مع وجوب أن يكون ماؤه من المطر، ومن ثم وضع المتهود تحت رقابة مباشرة ودقيقة ثلاث سنوات، قد تمتد إلى خمس. ومن غير هذه المراسيم لا يعتبر المتهوّد يهودياً، ويبقى خارج الملة، وإذا تزوج عُدّ أبناؤه أولاد زنى (mamzer) انظر للتفاصيل:

1- Dan Cohen Sherbok, *The Jewish Faith* (Spek, 1993), P: 229.

2- Jacob Neusner: *The Way of The Torah*, (California: Wadsworth Belemont, 1979, 2d edition) p: 26.

٣ ابن تيمية الحرّاني، **اقتضاء الصراط المستقيم** (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣، ط١)، ص١٧٩، حققه وخرّج أحاديثه: عصام فارس الحرستاني ومحمد إبراهيم الزغلي.

لها ملامحها، ودين، لأن العربية وسيلة فهم الإسلام، وشرط لازم للتفقّه في شريعته، وإدراك مقاصده العليا؛ واستنباط الأحكام الفرعية العملية من أصوله.

ومن هذا المنطلق، ولحسن فهم شرع الإسلام ومقاصده جاءت توكيدات أئمتنا الكبار لزومَ التفقّه في علوم اللغة العربية، فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إنّ اللّه لما أنزل الكتاب والحكمة باللسان العربي، وجعل رسوله مبلّغاً عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به، لم يكن سبيل ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللّسان، وصارت معرفته من الدين"[٤].

ويزيد هذا التقرير توكيداً الإمام الشاطبي فيقول: "إن الشريعة عربية، وإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلاّ من فهم العربية حقّ الفهم، لأنهما سيان في النمط، ماعدا وجوه الإعجاز. فإذا فرضنا مبتدئا في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسِّطاً، فهو متوسط في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية، فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية، كان كذلك في الشريعة"[٥].

ويقول العلامة ابن خلدون: "علم اللسان العربي أركانه أربعة: هي اللغة والنحو والبيان والأدب، ومعرفتها ضروريه على أهل الشريعة، إذْ أن مأخذ الشريعة كلها من الكتاب والسنّة، وهي بلغة العرب، نقلها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغتهم، فلا بدّ من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة"[٦].

وعن هذا الترابط والتلازم بين التفقه في علوم اللسان العربي والتفقه في الدين وأحكامه ومقاصده جاءت مقولة صاحب المنار: "لا يمكن تصورّ حضارة إسلامية من غير اللغة العربية" وإنه "لايتعظ الإنسان بالقرآن، فتطمئن نفسه بوعده، وتخشع

---

٤ المصدر السابق.

٥ الإمام الشاطبي، **الموافقات** (بيروت: دار الفكر العربي)، ٤/١١٤-١١٥.

٦ ابن خلدون، **المقدمة** (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦-١٩٥٩، الفصل السادس والثلاثون: في علوم اللسان العربي، ص: ٥٤٥.

لوعيده، إلاّ إذا عرف معانيه، وذاق حلاوة أساليبه، ولايأتي هذا إلاّ بمزاولة الكلام العربي البليغ"[٧].

ولقد أسرعت وأعانت هذه الصلة الشرطية بين التفقّه في علوم اللسان العربي وحسن فهم الإسلام في أسْلَمة الأمم والأقوام التي اعتنقت الإسلام، والانصهار في ثقافته، واعتماد أساليب اللغة العربية في الخطاب وفي التدوين؛ والدخول في الإطار الأخلاقي الذي حدد معالمه القرآن الكريم والسنة النبوية، طواعية واختياراً.

ونحن بوصفنا مؤرخين للأديان نعلم علم اليقين بل وحق اليقين أنه: لاخير في عقيدة تفرض على الناس قسراً، ولارجاءَ في مبدأ يلقّن بحدّ السيف إكراها وجبراً، ولهذا فإننا لانرى في تاريخ الإسلام السياسي حركات ردّة عنه، أو محاولات تمرّد على أصوله وقواعده، مهما تذرّعت بذرائع قومية، إلاّ أنها لم تهدف إلى الخروج عن دينها وعقيدتها الإسلامية وقيمها الجوهرية ولوازم شريعتها، الأمر الذي يؤكد قناعتها المبدئية والطوعية بدين الإسلام، أصولاً وفروعاً، وهوية ثقافية، ورابطة روحية ومعنوية، هذا في الوقت الذي عاصرنا في زماننا هذا تسلّطاً غربياً علمانياً وشرقياً ماركسياً، فقد حاولت أجهزتهم التسلطية متوسلة بكل أسباب الغواية والاستدراج، وبكل أساليب القهر والطغيان، كي تفرض أفكارها على الأمم والشعوب الإسلامية، فما زادها جبروت الطغيان إلاّ رفضاً لما بشرت به تلك الدوائر من آراء، وإلا ازوراراً عنها، ورداً لمقالاتها الفاسدة.

إنّ هذه النزعة الفطرية والموروثة للإسلام على التوسع والانتشار التلقائي هي ما أثارت وتثير باستمرار مخاوف خصومه وأعدائه منه؛ ومن هنا صرنا نسمع هذه الأيام

---

٧ رشيد رضا، **تفسير المنار** (بيروت: دار المعرفة، ١٩٧٣، ١/ ١٨٢)، وقد سبق هؤلاء جميعاً علماء اللغة والبيان إلى توكيد هذه الرابطة الشرطية بين التمكن من فقه اللغة العربية والاجتهاد في الشريعة، قارن مثلاً: بالباقلاّني، **إعجاز القرآن** (مصر: مطبعة محمد صبيح، ١٩٧٣)، ص١٤٤، ١٥٧، ١٥٩، تعليق محمد عبد المنعم خفاجي، حيث يقول: "من زعم أنه يمكنه أن يفهم شيئاً من بلاغة القرآن بدون أن يمارس البلاغة بنفسه فهو كاذب مبطل".

عن دعاوي مضلّلة باطلة تتردد في وسائل الإعلام الغربية المسموعة والمقروءة عن الخطر القادم من الإسلام؛ وإنه العدوّ المتربص بالغرب[٨] وحضارته رغم ما يراه الغرب من تشتت في صفوف الأمة الإسلامية، وركود في مسيرتها المعاصرة، وغلبة للفقر والجهل والمرض على غالبية أقطارها، وإن غالبية اللاجئين الذين تقوم هيئات الأمم المتحدة برعايتهم هم من المسلمين المقهورين على أمرهم؛ إمّا لفساد الأنظمة المتحكّمة في رقابهم جوراً وعدواناً، أو نتيجة لسياسات التجويع والتهديد التي مارستها الدوائر الاستعمارية على مدى قرون ضدهم.

ذلك أنّ الوعي الجمعي الغربي واعٍ لهذه القوة الفطرية الموروثة للإسلام، فهو يقظ مستفزٌّ يترصد حركته ويحصي سكناته، ولأنَّ الغرب يصدر في خصومته ومخاوفه عن مقولة سلبية هادمة سيطرت ــ ولاتزال ــ على وعيه التاريخي، منذ أيام الحروب الصليبية، مفادها: (أنّ الإسلام قوة كامنة للانفجار، وهو إلى ذلك خطر لايمكن التنبؤ به مقدَّماً، ولأنه دين يرفض مبدأ التطور ويناهض بقوة التجديد[٩]، وأنه قادر مقتدر

---

٨ انظر: مقالة صموئيل هانتنجتون "صراع الحضارات" **في مجلة الشؤون الخارجية** *Foreign Affairs*، عدد ايلول ١٩٩٣. وقد ترجمناها إلى العربية، وظهرت الترجمة في مجلة **الندوة**، عمان، (الأردن)، المجلد السادس، العدد الأول ١٦-٣٥، يقول مستشهدٌ برأي للمستشرق المعروف برنارد لويس: "إننا نواجه حالة وحركه تفوق في خطورتها سائر وجوه الخلاف التي قد تنشب حول القضايا والسياسات التي نتبعها مع الحكومات، إنها في حقيقة الأمر مواجهة حضارية، قد لاتبدو معقولة، ولكنها بكل تأكيد هي ردود فعل تأريخية من منافس قديم لتراثنا اليهودي، المسيحي المشترك، ووجودنا العلماني والمديات العالمية لانتشارهما معاً. وانظر الدعوة السافرة لشن حرب باردة على الإسلام مقالة **بوزان**:

Barey Buzan, New World Real Politics: New Patterns of Global Security in the Twenty First Century; *International Affairs*, vol: 67.

حيث يقول: "إن من شأن حرب باردة اجتماعية مع الإسلام أن تعزز الهوية الأوروبيه من جميع نواحيها" ويضيف مستطرداً: "لكل هذه الأسباب وغيرها ربما يوجد رأي واسع الانتشار في الغرب ليس على استعداد فحسب لتأييد شن حرب باردة اجتماعية على الإسلام بل والأخذ بسياسات تشجع على ذلك".

٩ انظر على سبيل المثال: كارين هورنر وفيرينا كليم: **صورة المسلين المشوّهة لدى بيتر شول لاتوار**، بالميرا فرلاغ، هايدلبرج، ١٩٣٣. وقد انساق نفر من المغتربين عن الأمة وهمومها وراء هذه المزاعم فصار كما صوره القرآن الكريم: ﴿يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ فقد زعم بسّام طيبي: "أن الإسلام يعمل عمل حضارة دفاعية موجهة ضد الحداثة، يعوض بها أصحابها عن ضعفهم أمام خصومهم من خلال العنف"، انظر: **أزمة الإسلام الحديث**، ميونخ ١٩٨١. وقارن للمقارنة: مراد هوفمان، **الإسلام البديل** الترجمة العربية، مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات، ط١، شوال ١٤٣١هـ، إبريل ١٩٩٣) الفصل الأول: الإسلام والغرب ص ٢١-٣٣.

على استعادة قوته واندفاعه وزخمه من غير مقدّمات دالة على ذلك، وإلاّ بم نفسر هذا الاهتمام الغربي الموصول والمتزايد يوماً بعد يوم بالإسلام: عقيدةً وتاريخاً وشعوباً، وهو ـ أي الغرب ـ يشهد جمود حركة الأمة وتفتت أوصالها، وزوال قوتها، وانحسار سيادتها، وتسلط الظلمة الفجرة على مصائرها، وتذكيره عبر وسائل إعلامه الإنسان الغربيَّ صباح مساء بالصراع الملْحمي التاريخي بين الإسلام والغرب، وأنه بزعمهم واقع متوقع وقريب لا محالة، مع إغفال تام وتنكر متحرّف لفصول الحوار الحضاري الطويل بين الإسلام والغرب الذي بدأ واستمر ألف عام أو يزيد).

ثانياً: قدرة الإسلام الفطرية والموروثة على الهضم والتمثل الثقافي:

لم تكن الحضارة الإسلامية قط منظومة ثقافية مقفلة على ذاتها رغم خصوصيتها المتفّردة التي حفظت للأمة هوّيتها المعنوية المتميزة؛ إن الحضارة الإسلامية لاتعرف التمحور الثقافي على الذات، بل تردّه وتنكره ولا تستسيغه؛ وأصل هذه القوة الكامنة الثانية للإسلام مرجعها أصالة اعتراف الإسلام بالأنبياء السابقين، وما أنزل عليهم من وحي ورسالة وكتاب، فهو بشهادة الفرقان وكما أشار ابن القيّم: "دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، ليس للّه دين سواه"[١٠] ومن هذا المنطلق صار من البداهة أن إسلام المسلم لا يتم إلاّ بالإيمان بالرّسل والأنبياء السابقين، وبالوحي الذي أنزل إليهم، وبالكتب التي جاؤوا بها من عند الله تعالى، وبعصمتهم المطلقة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا. وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً. رُسُلاً مُبَشِرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ

---

١٠ ابن القيم، **التفسير**، سورة البقرة، الآية: ١٣٦.

الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً. لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ (النساء:١٦٣-١٦٦) وأيضاً (الشورى:١٣).[١١]

ولا يجد الإسلام تناقضاً وخلافاً بين الإيمان بالرسل وما أنزل إليهم وأن يكون هو تمام الشرائع السابقة وكمالها، ومن هنا جهالة غلاة المستشرقين وبحثهم بزعمهم عن العناصر اليهودية في الإسلام أو عن العناصر المسيحية في الإسلام، حتى انقسم اليهود والنصارى منهم مذاهب قدداً، كلٌّ يزعم بمكره السيئ صدور القرآن الكريم عن العهد القديم أو العهد الجديد، على تفاوت بينهم، وكأنهم لم يسمعوا بقول رسول الإسلام: "لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلاّ اتباعي"[١٢] وتصريح القرآن الكريم على لسان الرسول الكريم: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف:٩). إن الإسلام كمال الأديان، وخاتمة الرسالات الإلهية، ورغم كل ما مرّ به في التاريخ من نكبات وكوارث، وواجه من محاولات التحريف والتشويه فقد ظلّ (أنقى أديان التوحيد)،

---

١١ حاول في النصف الثاني من هذا القرن عدد من علماء الأديان في الغرب صياغة هذا المبدأ القرآني الخالد بالقول: إنَّ الوحيَ الإلهي وحْيان: عام *A General Revelation*: يتكشف في الصيرورة الكلية العامة The Whole Process of History، وخاص *A Special Revelation*، الرسول بعينه والرسالة بعينها، التي جاءت هذه الآيات بياناً لهما معاً، وليس بعد إعجاز البيان القرآني من بيان، انظر؛

Arberry, John Arther, *Revelation and Reason in Islam* (London: 1956), P.12.

١٢ راجع: الشهيد سيد قطب، **في ظلال القرآن** (بيروت: دار الشروق، ط٢، المجلد الأول)، ص٤٣٩، لهذا وكما أكد القرآن الفرقان، كان الإسلام دين الأنبياء جميعاً من لدن نوح إلى آخرهم وخاتمهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ: فقال الحق تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٧٢). وعلى لسان إبراهيم الخليل: ﴿قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ١٣١). وعلى لسان إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ (البقرة: ١٢٨). وعلى لسان يعقوب وَبَنِيهِ: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة:١٣٢). وعلى لسان يوسف في مناجاته لربه تعالى: ﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١). وعلى لسان موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ (يونس:٨٤). وعلى لسان عيسى لأنصاره: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ واشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٥٢). وعلى لسان محمد خاتم الأنبياء والمرسلين في صلواته ومناجاته الصفيَّة التقيّة الدؤوبة لربه: ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٣). وهو بعد هذا كله خطاب للمؤمنين جميعا دون تحديد وتخصيص زماناً ومكاناً: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠١).

حفظه اللّه تعالى ممّا أصاب الشرائع السابقة عليه من تحريف وتشويه، ولَبْس وغموض، وتدليس وتغيير، وحذف وإضافة. فمهمة القرآن الكريم ومكانته بهذه المثابة: هي: **الهيمنة والتوجيه والتصحيح والحاكمية والختم والإكمال**، لإلغاء الشرائع السابقة عليه، وذلك عن طريق تثبيت الصحيح من أحكامها، فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بالحقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ولاتَتَبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ﴾ (المائدة:٤٧)؛ ومن مهمته تبسيط اليهودية والمسيحية وذلك بالعودة بهما إلى مصدرهما الإلهي الأول، والقاعدة المشتركة للأديان السماوية جميعاً، أي مبدأ الوحدانية الخالصة المبرّأة من لوثة الكثرة والتعدد، كما في المسيحية، أو نزعة التمحور حول الذات و تحويل دين اللّه إلى دين قومي، كما هو الحال مع اليهودية.

ومن هنا فإن خلاف الإسلام مع اليهودية والمسيحية، هو خلاف اليهودية مع نفسها، وخلاف المسيحية مع ذاتها. فاليهودية على الرغم من أنها ديانة تعترف ـــ من حيث المبدأ ـ بالتبشير وتنادي بعالمية رسالتها، إلاّ أنها تحوّلت على أيدي الكهنة والأحبار وكَتَبة الأسفار ومعلمي الشريعة من الفريسيين إلى ديانة منكفئة على ذاتها، مقفلة في وجه الأغيار(الكوئيم ـ GOI) ومحصورة في العبراني المولود من أمّ عبرانية تحديداً[١٣] Matrimonial Descent، وهكذا تحوّلت العقيدة اليهودية إلى ديانة القلّة المختارة أو الصفوة المثالية، كما يشير الحاخام أيسدور إيشتاين: [١٤]

---

13 Dan Cohen Sherbook, OP. CIT, p.i; Epstein: Isoder: *Judaism*, (Penguin Books 1990), p.19;

Alan Unterman: *Jews, Their Religious Beliefs and Practices* (Routledge, London, New-York, 1989) p.2.

الذي يؤكد: "بأن الهوية اليهودية تقوم على النسب أكثر منه على الانتماء العقيدي. فاليهودية دين جماعة عرقية مخصوصة".

١٤ العهد القديم: سفر عزرا: ٩ وأيضاً سفر نحميا: ١٣ـ ٢٣(واستحلفهم باللّه أن لايعطوا بناتهم لهؤلاء الغرباء ولايأخذوا بناتهم لبنيهم ولا لهم): وتزعم التوراة أن النبي سليمان قد وقع في الخطيئة والردة بزواجه من الغريبات: سفر نحميا: ١٣: ٣ـ٢٦(أما بهذا خطئ سليمان ملك إسرائيل) يقول طيب تيزني تعليقا على هذه التوجيهات المحرفة: (عزرا أطلق على كل ما هو غير يهودي تعبير نجس، وعلى هذا فحين كان البعض ينتمي إلى اليهودية، كموقف ديني، ينظر اليه أولئك القيّمون(رجال المؤسسة الدينية) شزراً ويشكون في أمره ويعتبرون انتماءه هذا =

"Judaism is the religion of minority of idealists"، فهم القلّة الصفوة التي يجب أن تنفرِز عن غيرها حرصاً على طُهْرها العرقي ونقائها القومي، فقد جاء في سفري عزرا ونحميا: (امنعوا اختلاط النسل الطاهر بأمم الأرض كي ينفرزوا عن شعوب الأرض ورجاساتهم).

أمّا المسيحية فقد انتهت تحت تأثيرات المذاهب الغنوصية والأفكار الأفلاطوية المحدثة والنزعات الوثنية التي نفذت إلى أبنيتها العقائدية، تحت تأثيرات القديس بولص والإمبراطور قسطنطين الأكبر[١٥] إلى القول بالتثليث والحلول والتجسيد. فالثابت تاريخياً أنّ المجمع المسكوني الذي انعقد في مدينة نيقية عام ٣٢٥ م، وبزعامة سياسية مباشرة من الإمبراطور نفسه؛ لم يلتزم أو يحترم تصور الوحدانية في الله الذي مثّله آريوس، وهو تصوّر عيسى عليه السلام والحواريون الأوائل لله تعالى، فأصدر ذلك المجمع قراراً، ليس له طبيعة الإعلان، وإنما طبيعة الدستور المُلزِم، وذلك بشأن مسألة التثليث، فبعثها وتبنّاها، بصفتها عقيدة أساسية، وصار القول بالتثليث أهم سرّ من أسرار المسيحية،[١٦] مما حمل كثيرين من مؤرخة المسيحية على ادعاء أن: (المسيحية كما هي اليوم مسيحية مزوّرة،[١٧] الأمر الذي أكده القرآن الكريم ونفاه عن السيد المسيح عليه السلام.

= إما نتيجة لخوفه من اليهود، أو طريقاً غير مباشر لتدمير هؤلاء من الداخل): انظر: طيب تيزيني، من يهوه إلى الله (بيروت: دار دمشق، ١٩٨٦، ط١)، ص: ٢٨٠.

١٥ يؤكد الإمام الشيخ محمد عبده هذا بقوله: (إن النصرانية انقلبت إلى وثنية من عهد قسطنطين)، انظر: **الأعمال الكاملة**، (بيروت: دار الشروق ١٩٩٣، ٣/٥٦٠). وقد قدم المؤرخ الكنسي المعروف Wolf Gang Hage دراسة قيّمة عن الملابسات التي أحاطت بانعقاد مجمع نيقية ونشأة ما صار يعرف باللاهوت السياسي وآثاره السلبية على مسيرة الكنيسة المسيحية، انظر: مقالته: (العلاقات بين الكنيسة الرومانية للإمبراطور قسطنطين ونصارى الإمبراطورية الفارسية) التي ترجمناها إلى العربية ونشرت بمجلة: (**الندوة**) دورية جمعية الشؤون الدولية، عمان، المجلد السادس، العدد الثالث، صفر ١٤١٦، تموز ١٩٩٥ م، ص: ٢١-٣٠.

١٦ هوفمان، المصدر نفسه، ص: ٥٥.

١٧ أصدر كارل هاينز دشنر كتابين، الأول: **العقيدة المحرفة** (ميونيخ: ١٩٨٨)، والثاني: **التاريخ الإجرامي للمسيحية** (هامبورغ: ١٩٨٦)، نقلاً عن هوفمان، المصدر نفسه.

ومن هذا المنطلق القرآني السديد فإنّ الإسلام إنّما مثل في حركته: كمال الشرائع، جاء لتطهيرها من الشوائب والشذوذ والزوائد، هذا من جهة: **القيوّمية والحاكمية والتصحيح**[١٨].

ومن طرف آخر فإنّ إقرار القرآن الكريم بدعوة الأنبياء السابقين، وجعل هذا الإقرار من قواعد العقيدة الإسلامية قد أكسب الثقافة الإسلامية، منذ بواكير نشأتها الأولى وفي كافة مراحل تطورها، قدرة فائقة على الاستمداد الثقافي Cultural Borrowing من الدوائر الحضارية الكبرى التي اتصلت بها، بعيداً عن أسباب البغضاء والعداوة الكامنة والظاهرة؛ مع إمكانات واسعة وفعالة وذكيّة، لنقل مضمون العناصر الثقافية المستمدة إلى صور إسلامية تلتئم مع المبادئ والمفاهيم والمثل الأساسية للإسلام، بحيث تنقطع الصلة ـ في عملية إعادة التفسير والبناء ـ بين العناصر الغريبة المستمدة، التي جرت أسْلمتها بوعي نضيج، وأصولها وجذورها ومنابتها الأولى الأصلية التي لا تلتئم ولا تتفق مع الأصول العامة للإسلام.

إن هذه الخاصية المتميزة، أعني قدرة الثقافة الإسلامية على تحويل عناصر أجنبية في مواردها ومنابتها وإيماءاتها وإيحاءاتها إلى ثقافة إسلامية أصيلة ظلت على الدوام قوة فعل كامنة في الإسلام هيأت له، ويمكن أن تهيئ دائماً، وفي كل الظروف والأحوال، إمكانات النماء والتطور والاستمداد وإعادة البناء، ومواجهة التحديات الحضارية والثقافية، بلا خوف أو انكفاء على الذات مردّه فناء الشعور بالذات أو الغيبوبة التاريخية عنها، التي تُسلم صاحبها إلى الانقطاع عن الوعي الجمعي للأمة، ويغفل عن

---

١٨ قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلاَتَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ (المائدة: ٤٧)، ويقول ابن عاشور في تفسير الآية: "قد أشارت الآية إلى حالتي القرآن بالنسبة لما قبله من الكتب: فهو مؤيد لبعض ما في الشرائع، مقرر له من كل حكم كانت **مصلحته كلية** لم تختلف مصلحته باختلاف الأمم والأزمان، وهو بهذا الوصف مصدّق، أي محقق ومقرر، وهو أيضاً مبطل لبعض ما في الشرائع السابقة وناسخ لأحكام كثيرة من كل ما كانت مصالحه جزئية مؤقتة مراعٍ فيها أحوال أقوام خاصة)، (التحرير والتنوير في التفسير)، (منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٥) ٦/٢٢١.

سر حركتها التاريخية الجوهرية.

وهذه الخاصية المتفردة للفكر الإسلامي قد أشار إليها، وأبان عن فعلها الحضاري المتجدد، عدد كبير من المستشرقين أمثال غوستاف فون جرونباوم في دراسته المتعلقة بالتاريخ الثقافي للإسلام، وبخاصة في كتابيه: (الإسلام في العصور الوسطى)[١٩]، و(الإسلام الحديث ـ بحث عن الهوية الثقافية)[٢٠]، واصطلح على تسميتها **بقدرة الفكر الإسلامي وقابليته الفائقة على الامتصاص الثقافي المتنوع:** (Cross - Cultural Absorptiveness)، وقال عنها أجنتس كولدتسيهر: (إنّ الإسلام قد أكد استعداده وقدرته على امتصاص الآراء وتمثّلها، كما أكد قدرته كذلك على صهر تلك العناصر الأجنبية كلها في بوتقة واحدة، فأصبحت لاتبدو على حقيقتها، إلاّ إذا حللّت تحليلاً دقيقاً، وبحثت بحثاً نقدياً دقيقاً)[٢١]. كذلك قال عنها برنارد لويس: (إن الحضارة الإسلامية ـ رغم تنوّع أصولها ـ لم تكن مجرد جمع آلي للثقافات القديمة، بل هي بالأحرى خلق جديد، انبعثت فيه جيمع هذه العناصر لتكوّن حضارة جديدة، وذلك بأن انتقلت إلى صور عربية وإسلامية، وهذه العملية سمة مميزة لكل مرحلة من مراحل تطور هذه الحضارة)[٢٢].

ومن هنا فإني لأرى مسوّغاً للغلوفي الحذر والتخوف من الحوار الحضاري بين الإسلام ودوائر الحضارات الكبرى، وهو الخوف الذي صار يسود أوساطاً معينة في فكرنا المعاصر في العقود الأخيرة، فإنّ الوقت والوعي بخصائص هويتنا الإسلامية

---

19 Von Grunbaum: *Medeival Islam*, 2ed, (Ed, Phoenex Book -1953).

20 Von Grunbaum: *Modern Islam: The Search for Cultural Identity* (California University Press, 1962).

٢١ أجنتس كولدزيهر، **العقيدة والشريعة في الإسلام** (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٥٩، ط٢)، الترجمة العربية: محمد يوسف موسى، علي حسن عبد القادر، وعبد العزيز عبد الحق، ص: ١١.

٢٢ برنارد لويس، **العرب في التاريخ** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٤)، الترجمة العربية: نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد ص: ١٩٢. وانظر أيضاً: ريتشارد فالتزر، **الفلسفة الإسلامية ومركزها في التفكير الإسلامي** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٨)، الترجمة العربية: محمد توفيق حسين الذي يقرر ماسبق: "لقد تقبل المسلمون الفكر الأجنبي بفكر متفتح وصدر رحب ونظرة بعيدة، واستوعبوه استيعاباً مثمراً، لقد كان عملهم ذلك محاولة جدية لتحويل التراث الأجنبي المغاير للإسلام كل المغايرة وجعله جزءاً حيّا من الثقافة العربية" ص: ٣٤.

كفيلان ـ كما تدل شواهد التاريخ ـ بتحويل ماهو أجنبي وغريب عنا، بعد **تطويعه عبر عمليات التمثّل والهضم والأسلمة وإعادة التفسير والتأويل**، إلى لبنات راسخات في البنْية الجوانّية للفكر الإسلامي، بحيث يتحوّل ما كان غريباً ومنتحلاً وهجيناً Heterogenetic Culture إلى ثقافة إسلامية أصيلة Orthogenetic Culture في أبنيتها ومقاصدها، منسجمة مع مسلّمات العقيدة، لاتشكو الغربة في مضامينها وإيماءاتها. ولنا في المواجهة الحضارية والثقافية بين الإسلام والفلسفات والعقائد القديمة التي وجدها الفاتحون في الأمصار؛ وبخاصة الفلسفة اليونانية المعروفة بنزعتها الوثنية الراسخة والمذاهب الغنوصية القديمة، نموذج لهذا الذي أبنّا عنه، فقد خرج الإسلام من هذه المواجهة الفكرية بأقل الأضرار مقارنة بما حصل لليهودية والمسيحية من الآثار السلبية التي تركتها تلك الفلسفات والمذاهب عليهما، مما غيّر من جوهرهما إلى حدّ بعيد.

ثالثاً: الطبيعة التوفيقية الجامعة والمعتدلة للإسلام بوصفه عقيدة وللفكر الإسلامي بوصفه دائرة ثقافية:

اعتاد كثير من الباحثين في الفكر الديني المقارن؛ مسلمين وغير مسلمين؛ تصوير الإسلام عقيدةً دينيةً، وتصوّراً كلّياً عن الكون والإنسان، ومنهجاً في الحياة، له خصوصيته، باعتباره قائما على قاعدة التوسط بين اليهودية والمسيحية، وأنه جمع بينهما في معادلة موزونة ومتوازنة تتجاوز ما اختصّتا به من نظرة أحادية، وهم يبررون دعواهم بالقول بأن اليهودية ديانة مقفلة على ذاتها، لا تشجع التبشير، وإنْ أقرته نظرياً، كما أوضحنا من قبل، وأنها تهتم بالعالم المادي الخارجي، **فنظرتُها برّانية خالصة**.

ومن هنا فإن اليهود كما يشير برتراند رسل: "شاركوا ويشاركون في بناء الحضارة المادية، ولكنهم ليست لهم خطوات تستحق الذكر في عالم الثقافة الروحية)[٢٣] التي من

---

23 Russeli, BI: *History of Western Philosophy* (London: Routledge, 1991) p: 329.

وللاستزادة قارن: علي عزت بيجوفيتش، **الإسلام بين الشرق والغرب** (منشورات مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات، رجب ١٤١٤هـ، يناير ١٩٩٤، ط١) ص: ٢٧٣ ـ ٧٤.

شأنها تطوير الإنسان جوانياً قصد تنمية شعوره الإنساني وتطويره جوّانياً، وعلى النقيض من اليهودية ونزعتها البّرانية".[٢٤] فقد جاءت المسيحية وهي تمثل ثورة عارمة ورد فعل عنيفاً على البرانية التي طغت على تعاليم اليهودية المحرّفة، فاتسمت هي الأخرى بقدر كبير من الغلوّ والتطرف المقابل، إذ اهتمت على وجه التخصيص بعالم الملكوت والقداسة الكاملة بغية الحدّ من برّانية اليهودية من جهة وتطوير الإنسان جوانياً من جهةٍ أخرى.

وكان السيد المسيح عليه السلام نموذجاً كاملاً لمثالية أخلاقية فائقة ومفارقة Heroic Ethics لاتمت إلى دنيا البشر بصلة، جسّدها عليه السلام في خطاباته الموجهة إلى اليهود خاصة[٢٥]، وإصراره على غربته الوجودية في هذا العالم المادي وحنينه الطاغي إلى العالم الإلهي و(مملكة الرب) كما جاء في الإنجيل: (مملكتي ليست في هذا العالم)[٢٦]

---

٢٤ يرى مؤرخ الفكر الفلسفي المعروف، كورن فورد، أن الدين من جهة والفلسفة (العلم) من جهة ثانية يمثلان استجابة الإنسان الطبيعية لنزعتين فطريتين فيه: إحداهما عقلية نظرية وأخرى صوفية عملية. واحدة تستثيره للسيطرة على العالم الخارجي وتسخيره لمنافعه المادية،والأخرى تدفعه صوب ذاته الباطنة من أجل تنمية شعوره الإنساني وتطويره جوّانياً انظر:

Corn Ford , *F.H:From Religion To Philosophy* (N.Y: Harper and Row, 1957) p: 2,

ووصف اليهودية بالبرّانية (External) تهمة استمرت في الكتابات المسيحية حتى القرن التاسع عشر والقرن العشرين وخاصة في كتابات يوليوس فلهاوزن وولهلم بوسيت (Bousset) انظر: دائرة معارف الدين والأخلاق: مادة المسيحية، المجلد ٣، ص٢٣٦.

وخلافاً لاتهام اليهودية بالبرّانية المحضة فإن عدداً من فلاسفة اليهود المحدثين، أمثال صموئيل لوزاتو(١٨٠٠-١٨٦٠) قد بنوا حجتهم ودعواهم في إيجابية تأثير اليهود في التاريخ على أساس أن الحضارة الغربية التي ترجع في أصولها إلى الروح الأثينية (Atticism) ذات النزعة التعددية والمادية قد فقدت توازنها الإنساني وغدت حضارة عرجاء تمشي على ساق واحدة، لا يعيد إليها توازنها إلاّ الإهتداء بالروح الإبراهيمية (Abrahamism)، التي هي - في دعوى اليهود - خلاصة اليهودية التاريخية وجوهرها، وهي الروح التي منحت البشرية معاني الجمال والكمال وفضائل الأخلاق المعنوية. انظر: ابشتاين آيسدور - المصدر نفسه، ص: ٣٥١.

25 Irving M. Zeitlin: *Jesus and The Judaism of his Time* (Cambridge: Polity Press, 1988), P: 129.

٢٦ إنجيل يوحنا: ١٨-٣٦: وإنجيل متي: ٥: ٣٨، وإنجيل لوقا ٦: ٢٩-٣٠، وترد في الأناجيل أقوال لاذعة للسيد المسيح عليه السلام موجهة ضد يهود عصره، ونعته إياهم بشتّى الصفات الدالة على نزعتهم المادية البرانية واستغراقهم في ملذات الدنيا وتظاهرهم الكاذب بالتقوى من ذلك (فأنتم أولاد أبيكم إبليس وتريدون أن تتبعوا رغبات أبيكم، هذا الذي كان من البدء قاتلاً؛ ماثبت على الحق يوماً) إنجيل متي: ٨: ٤٤ وقوله: (الويل لكم يامعلمي الشريعة والفريسيون المراؤون تأكلون بيوت الأرامل وأنتم تظهرون أنكم تطلبون الصلاة، سينالكم أشد -

وقد حاولت المسيحية أثناء تطورها في القرون الأولى لنشأتها التشبث بعالم القداسة والارتقاء إلى عالم الملكوت، وذلك باصطناع وسائل مستقاة من الفلسفة الرواقية والمذاهب الغنوصية الباطنية، لقهر الجسد وكبت مطالبه، ونفي الذات، واعتبار الزواج افتراء، ومدح العزوبية، والدعوة إلى الرهبنة، بل والأخذ بالخصاء طلباً للعفة والطهر، وهروباً من الدنيا وشهواتها وإغراءاتها[٢٧].

وترسخت هذه النزعة الجوّانية الغالية في الفكر الديني المسيحي بتأثيرات القديس بولص وفعل خطاباته إلى النصارى: "مالنا في الأرض مدينة باقية، ولكننا نسعى إلى مدينة المستقبل"[٢٨]، وقوله: "مادمنا في هذه الخيمة الأرضية فنحن نئن تحت أثقالها"[٢٩]، وقوله: "لاتنظر إلى الأشياء التي تراها بل إلى الأشياء التي لاتراها، فالذي نراه هو إلى حين، وأمّا الذي لانراه فهو إلى الأبد"[٣٠].

أما الإسلام فقد جمع في منهجه بين النظرتين معاً الجوانية والبرانيّة بلاتسويف أو غلبة طرف على آخر، فهو دين العالمين معاً وبلا فصل بينهما، إنهما حزمة واحدة يعزّ الفصل بين أفرادها[٣١]. فهو إذ يستثير في الإنسان دواعي السموّ الأخلاقي والكمال الإنساني والطهر الجوّاني وأسباب التقى والقداسة وكل داعية خلقية من شأنها تطوير

= العقاب) إنجيل متي ٢٣: ١٤، وأيضاً اتهامه القاسي لعلماء اليهود (أنتم كالقبور المبيضة ظاهرها جميل وباطنها ممتلئ بعظام الموتى وبكل فساد (إنجيل متي: ٢٣: ٢٧)، ومثل هذا كثير.

٢٧ ذهب أصحاب الردود من الإسلاميين إلى أن الخصاء والعزوبية والرهبنة أمور لو تأكدت وموروست(انقطع النسل، وذهب الدين، وفتن الخَلق. انظر مدوّنات أصحاب الردود الإسلامية أمثال: علي بن زين الطبري (١٥٧-٢٤٠هـ)، والإمام الزيدي القاسم بن إبراهيم الحسني (١٧٠ ــ ٢٤٦هـ) والفيلسوف الكندي (١٨٥ ــ ٢٥٢هـ) والجاحظ (١٦٠ ــ ٢٥٥هـ) والإمام أبو منصور الماتريدي الحنفي (ت: ٣٣٣هـ) والإمام أبو بكر الباقلاّني (ت: ٤٠٣هـ) وقاضي القضاة الهمداني المعتزلي (ت: ــ ٤١٥هـ)، وهي الردود التي جمعها وناقشها ودرسها دراسة تحليلية متميزة الدكتور عبد المجيد الشرفي في أطروحته: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، (تونس: الدار التونسية للنشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، السلسلة السادسة).

٢٨ رسالة القديس بولص إلى العبرانيين: ١٢: ١٣.

٢٩ الرسالة الثانية للقديس بولص إلى كنيسة كوريثوس: ٥: ٤.

٣٠ المصدر السابق ٤-١٨.

٣١ الشهيد سيد قطب، **خصائص التصوّر الإسلامي** (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٠)، ص: ٥٧.

الإنسان جوّانياً: كسلامة القلب، والمسارعة إلى فعل الخيرات، والصدق والاستقامة والعفو والمغفرة والرحمة والمودة والإحسان والإيثار، وشكر المنعم وكظم الغيظ والتواضع والعفة، والبشاشة والوداعة، مع الاعتدال في كل الأمور، والترفع عن كل الرذائل والنقائص الخادشة للكرامة الإنسانية مثل الغيبة والنميمة والبهتان والسخرية والتنابز بالألقاب والطمع والإسراف والتبذير والبطر والاستكبار والبغي والفساد والمكر والحسد والرياء والنفاق والفسق والفجور والعهر والمجون، فإنه يؤكد وبقدر مساوٍ الاهتمام بالواقع والخارج، وملاحظة الطبيعة ورصد حركتها والسعي إلى معرفة أسرارها، والاجتهاد في استنباط قوانينها، باعتبارها العالم المسَخّر لمنفعة الإنسان. فالإسلام بهذا الاعتبار الجامع للنزعتين الفطريتين في الإنسان والقائم على الجمع بين عالمين: حضارة وثقافة، دين ودنيا، تنسّك وعقل، تأمل نظري مصحوب ببذل النشاط، إنه باختصار دين وعلم.

وانطلاقاً من هذه الروح الوسطية، المعتدلة والموزونة الجامعة[٣٢] بين ما هو برّاني وما هو جوّاني فإن الاجتهادات الفكرية في الإسلام جاءت هي الأُخرى صدى ورجعاً وتطبيقا وممارسة لهذه الروح الوسطية المعتدلة التي تقوم على الجمع بين النقائض المتضادة بعيداً عن الاستقطابات الحادة ومبدأ الصراع بين الأضداد.

وهكذا ومع ظهور مدارس ومناهج فكرية في بدايات التطور العام للفكر الديني في الإسلام اتسمت تعاليمها تارة بالغلو والتطرف، وأخرى بالتفريط والتقصير، فإنها

---

٣٢ خاصية الوسطية والاعتدال هذه ليست أصالة وليدة اجتهادات بشرية، وإنما هي استهدت بها، بل هي صيغة إلهية واختيار إلهي محض، فالحق تبارك وتعالى نسبها إلى ذاته العلية فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة ـ ١٤٢). يقول الإمام الغزالي: (ورد الشرع في الأخلاق بالتوسط بين كل طرفين متقابلين، فلا ينبغي أن يبالغ في إمساك المال فيستحكم فيه الحرص على المال، ولا في الإنفاق فيكون مبذراً، ولا أن يكون ممتنعاً عن الأمور فيكون جباناً، ولامنهمكاً في كل أمر فيكون متهوراً، بل يطلب الجود، فإنّه الوسط بين البخل والتبذير، والشجاعة، فإنها الوسط بين الجبن والتهور، وكذا في جميع الأخلاق). انظر: الغزالي، **ميزان العمل** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤)، تحقيق: سليمان دنيا، ص: ٢٥٨، باب بيان تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق، وراجع: ابن كثير، **التفسير**، المجلد الأول، ص: ١٦٦. وفيما يخص منهج التوسط والتيسير في الشريعة، انظر بحث الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي: "نحو فقه ميسّر معاصر"، **"دورية إسلامية المعرفة"**، السنة الثانية، العدد الخامس، صفر ١٤١٧هـ، يونيه ١٩٩٦، ص: ٩٧ وما بعدها.

سرعان ما غابت عن مسرح الفكر، وانتهى حضورها تاريخياً، ولم نعد نقرأ عنها إلا في بطون المدوّنات التاريخية، وقامت على أنقاضها مذاهب ومدارس ومناهج توفيقية معتدلة جامعة، مالت في تعاليمها إلى الاتزان والوسطية التي هيأت لها أسباب التواصل التاريخي، واجتمعت الأكثرية حولها، خلافاً للاتجاهات المتطرفة الغالية، كمذهب الشيعة الإمامية الأثني عشرية التي طردت عن تعاليمها ماعرفت به فرق الغلاة والباطنية التي انتسبت إليها من أفكار غالية خارجة عن معنى الإسلام[٣٣]. وكالإباضية من الخوارج التي صارت ترفض بشدة وتأبى في إصرار ربط مذهبها في الأصول والفروع بالخوارج لما عرف عنهم من الغلوّ والتشدد وتكفير المخالفين واستباحة أموالهم وحرماتهم[٣٤]. وكالمدرسة الأشعرية الممثلة لمنهج أهل السّنة والجماعة التي تجاوزت التناقضات الحادّة التي كانت قائمة بين العقليين والنقليين والصوفية، وأسقطت من الاعتبار بوسطيتها المتزنة مشكلة الصراع بين العقل والنقل وبين الحقيقة والشريعة؛ كل هذا في توافق وانسجام مع مبدأ الوسطية التي غدت السمة المميزة لثقافة الأمة ومنهجها في الحياة [٣٥].

---

٣٣ قاد عملية التصحيح الأساسية في الفكر الشيعي الأثني عشري الجعفري الشيخ المفيد بن المعلم محمد بن محمد البغدادي العكبري (ت: ٤١٣هـ / ١٠٢٣م)، كما هو بيِّن وواضح من عنوان كتابه: **تصحيح عقائد الشيعة الإمامية**، حيث يقول عن الغلاة: (الغلاة المتظاهرون بالإسلام هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام إلى الألوهية والنبوة، ووصفوهم بالفضل في الدين والدنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحّد، وخرجوا عن القصد، وهم ضلاّل كفّار، حكم عليهم أمير المؤمنين بالكفر والقتل والتحريق بالنار، وقضت الأئمة عليهم السلام عليهم بالإكفار والخروج عن الإسلام) ص: ٦٣(باب نفي الغلّو والتفويض، تبريز، ١٣٧١هـ).

٣٤ يؤكد علماء الإباضية إنكار صلتهم التاريخية والعقدية بالخوارج، ويتشدّدون في الإنكار، انظر على سبيل المثال: بكير بن سعيد أغوشت، **دراسات إسلامية في الأصول الإباضية** (١٤٠٩هـ، ط٤)، ص: ٢٢٩، وأيضاً سالم بن حمود، **أصدق المناهج في تميز الإباضية عن الخوارج** (مسقط: منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٧٩)، تحقيق وشرح الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف.

٣٥ يصور الإمام الشيخ محمد عبده هذه الروح الوسطية التي هي من معالم مذهب الأشعري قائلاً: "جاء الشيخ أبو الحسن الأشعري في أوائل القرن الرابع، وسلك مسلكه المعروف وسطاً بين موقف السلف وتطرف من خالفهم، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر.... ونصره جماعة من أكابر العلماء كإمام الحرمين الجويني والإسفراييني وأبي بكر الباقلاّني، فانهزم من بين يدي هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان: قوة الواقفين عند الظواهر، وقوة الغالين في الجري خلف ماتزينه الخواطر، ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو قرنين إلا فئات قليلة في أطراف البلاد -

رابعاً: نظرة الإسلام الواقعية إلى الكون والإنسان والحياة:

جاء الإسلام على فترة من الرسل ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة:١٩)؛ بعد أن شابت تعاليمَ الأنبياء السابقين التلفيقاتُ، وأحاطت بها الأوهام والخرافات، وألوان من التحريف والتشويه أو الغلوّ والتقصير، وغابت عن الأفهام النظرة السوّية المتوازنة إلى الإنسان "من حيث مكانه ومركزه في الوجود وتعيين مكانه ودوره وحقوقه وواجباته"[٣٦].

فكان حقيقاً بالإسلام، خاتمة الرسالات، أن يعيد الوجود الإنساني إلى فطرته، ويتجاوز به مواضع الشذوذ والانحراف، ومخاطر الإفراط أو التفريط، وليعود بالوجود الإنساني إلى طبيعته الأولى التي فطر الله تعالى الإنسان عليها، ويقيم هذا الوجود على "أساس من التعادل بين الكمّ والكيف، بين الروح والمادة، بين الغاية والسبب، وبكلمة واحدة بين العلم والضمير"[٣٧]

وهكذا فصل القرآن الكريم في نشأة الإنسان، وتقلبه في أطوار الخلق، فهو قد خُلق من تراب وطين لازب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم سُوِّيَ خلقاً متفرِّداً في أحسن تقويم، ليُختار، من بعد، خليفة في الأرض، يعمّرها بسعيه وكدّه واجتهاده، لا يرجو من سعيه وكدحه ونشاطه الدؤوب هذا إلاّ رضى اللّه تعالى وإعمار الحياة الإنسانية؛ راجياً في كل مناشطه رحمة الله الواسعة، مستمداً العون والرشاد والتسديد منه وحده، مشدوداً في كل حالاته إلى غاية واحدة سامية هي تحقيق معنى الاستخلاف الإلهي له، متوجهاً بكل إرادته وفعله "صوب تحقيق واقعيات الكون والالتزام بتدبيرها، والانتفاع بها"[٣٨].

- الإسلامية: **رسالة التوحيد**، ص ٧ـ٨. وللاستزادة راجع كتابنا: **دراسات في الفِرَق والعقائد الإسلامية**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤ - ١٩٨٤)، ص ١٤٦ وما بعدها.

٣٦ الشهيد سيد قطب: **الإسلام ومشكلات الحضارة** (القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٨)، ص١٦٩.

٣٧ مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة عبد الصبور شاهين (مصر: مكتبة دار العروبة، ١٩٥٩، ط١)، ص٢٨٩.

٣٨ الشهيد سيد قطب: المصدر السابق، ص١٨٧.

وعلى طريق تحقيق هذه النظرة الواقعية، فقد عدّ هذا الإنسان "كائناً فذاً" في هذا الكون، شديد التعقيد، وأنه ينطوي على "عوالم متفردة وعديدة"[٣٩].

والمستفاد من عموم التوجيه القرآني ـ في فهمنا واجتهادنا ـ أن هذا الإنسان كائن ثلاثي النشأة والتكوين، ومن ثم فهو ثلاثي الحاجة والمطالب، بلا تغالب بين نشأة وأخرى، أو تضاد بين حاجة وأخرى؛ بل في وحدة عضوية، هي نسيج تكاملي، يعزّ الفصل بين أطرافه ومكوّناته، لأن أي فصل بينها لا ينتهي إلاّ إلى تشويه الوجود الإنساني، واغتيال وحدته الشخصية:

أ ـ نشأة مادية أو تكوين مادي، يقتضي ضرورة الاستجابة لمطالبه وإشباع حاجاته المادية، ومن ثم لم يعد من الحق والصواب استقذار دوافع فطرته ومقتضيات هذا التكوين وحقه في الإشباع، ولم يعد ينظر إلى الإنسان باعتباره مَلَكاً نورانياً لا يلتبس بمقتضيات هذا الجانب المادي من تكوينه، فقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (آل عمران:١٤)، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ التِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَذِينَ آمَنُوا في الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٢)، وقال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص:٧٧)، يقول ابن الجوزي: "قد يسمع العامي ذمّ الدنيا في القرآن المجيد والأحاديث فيرى أن النجاة تركها، ولا يدري ما الدنيا المذمومة فيلبّس عليه إبليس بأنك لا تنجو في الآخرة إلاّ بترك الدنيا..... إن الدنيا لا تذم لذاتها، وكيف يذمّ ما منّ الله تعالى به، وما هو ضرورة في بقاء الآدمي، وسبب في إعانته على تحصيل العلوم والعبادة"[٤٠]

---

٣٩ المصدر السابق: ص٤٩ ـ ٥٠.

٤٠ ابن الجوزي، **تلبيس إبليس**، تحقيق: مصطفى عبد الواحد (القاهرة: ١٩٦٢)، ص١٤٥، الباب التاسع.

ب ـ نشأة عقلية أو تكوين عقلي، ومطلبه وحقه في إشباع حاجته في التأمل والتدبّر، والتفكر والتبصّر، والنظر والتعقل، لكي لا يبقى الوجود الإنساني أسيراً لمطالب تكوينه المادي ورغباته الأرضية، فيرتكس في مهابط الحيوانية المحضة، وقد كرّمه الله تعالى بالعقل، الذي هو كما يقول الإمام الماوردي: "أساس كل فضيلة وينبوع كل أدب"[٤١]؛ وليسمو الوجود الإنساني بالفكر والتأمل والتدبر في ملكوت السماوات والأرضين، ويكتشف أسرار الكون، وبديع صنع الله في خلقه، لينتهي من جالة الفكر والاجتهاد الحرّ النزيه، الذي يؤجر عليه إن أصاب أو أخطأ[٤٢] إلى مدارج الحكمة، ويتمايز عن شرّ الدّواب.

جـ ـ ونشأة روحية خالصة، ومطلبها وحقّها في الإشباع في التطهر والتزكية، وحاجتها إلى معراج روحي صوب الكمال الأخلاقي، والتشبّه بالملأ الأعلى، " بالفناء عن إرادة السِّوا"[٤٣]، ليتجاوز الوجود الإنساني بهذا المعراج الروحاني ـ مرة ـ عالم تقييدات النشأة المادية ولوازمها، وعالم الطين اللازب في تقلبه وسيرورته التي لا قرار معها، ومرة ثانية، تقييدات العقل البشري ولزوم التزامه حدوده ونسبيته، فهو "ليس عقلاً مطلقاً ذا مدى وجودي ومعرفي، وليبقى العقل الإنساني محصوراً فيما يستطيع أن يكتشفه من أسرار الوجود الطبيعي ومتّجهاً بكامل قدراته إلى دراسة واقع الكون

---

٤١ أبو الحسن الماوردي، **أدب الدنيا والدين**، تحقيق مصطفى السقا (القاهرة: ١٩٥٥، ط٢)، ص١.

٤٢ يقول أبو الوليد الباجي في كتابه: **إحكام الفصول في أحكام الفصول**: "الحق واحد، وإن من حكم بغيره فقد حكم بغير الحق. ولكننا لم نكلف إصابته، وإنما كلفنا الاجتهاد في طلبه. فمن لم يجتهد في طلبه فقد أثم، ومن اجتهد فأصابه فقد أجر أجرين، أجر الاجتهاد وأجر الإصابة للحق. ومن اجتهد فأخطأ، فقد أجر أجراً واحداً لاجتهاده، ولم يأثم لخطئه.

٤٣ ابن تيمية: **الرسائل والمسائل**، القسم الأول، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم (القاهرة: ١٩٦٩)، ج١، ص١٥٠. يقول الإمام ابن تيمية: "هذا حال النبيين وأتباعهم، يفنى العبد فيه بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبمحبته وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه عن محبة ما سواه، فقد فني من قلبه التألّه لغير الله، وبقي في قلبه تألّه الله وحده".

وواقع الحياة بالملاحظة والدرس والتحليل، ويتحرر من البحوث المابعدية لأنها سدى"[٤٤]، وحتى لا يقع أسير المقايسة الواهمة في التسوية بين إمكانات علمه وعالم الشهود المتناهي، وعجزه في معرفة عالم الغيب اللاّمتناهي، فيبقى عقلاً إجرائياً استقرائياً، يحذر من ادعاء العلم بكل شيء، ويقر ويعترف بحكم الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٨٥)، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ (الأنعام:٥٩)، ﴿قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللّهُ﴾ (النمل:٦٥).

إن من شأن هذا السموّ الروحاني والارتقاء في مدارج السالكين المنضبط بأدب العقل والدين معاً أن يُرسِّخ في النفس بواعث الألفة والمحبة، ويثير فيها دواعي التزكية ويطهرها من أدران الخسائس وقيح الموبقات: من العُجْب والكبر والغلّ والحسد، والشح والتقتير والسرف والابتذال والرياء والغضب والأنفة والعداوة والبغضاء والشحناء، وسواها من المهلكات القاتلة للمروءة وفضائل الأخلاق.

وهذا السموّ الأخلاقي من شأنه أيضاً أن يدفع بالإنسان إلى أن يعيش حالة الوجد، والعشق الإلهي، والسموّ الإيماني، في انفتاحه على الله تعالى، فتذوب عنده الفوارق بين الناس، وتصبح الحياة في كل مظاهرها تجليات لعظمة الله تعالى، وساحة لنعمته، ويكون الناس كلهم عند المسلم ـ السالك طريق العروج الروحاني والتزكية الجوانية والسموّ الإيماني ـ عيال الله، خيرهم خيرهم لعياله، وتنتفي عند معاناة المؤمن المسلم لهذه الحالة الوجدانية السامية كل المشاعر والأحاسيس والانفعالات والتوترات التي من شأنها أن تصوّر الآخرين من البشر شياطين يجب الاحتراس منهم؛ وأعداء تجب محاربتهم بكل وسيلة ممكنة ومقدور عليها، ويرنو بدلاً عن ذلك ببصره وبصيرته نحو إنسانية سمحة، ودعوة مفتوحة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، في حوار إنساني منفتح بعيد عن معاني التعصب والانغلاق أياً كانت صورته

---

٤٤ أبو يعرب المرزوقي، **مفهوم السببية عند الغزالي** (تونس: دار بو سلامة للطباعة والنشر، ١٩٧٨، ط١)، ص٢٢١.

ومظاهره ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ (البقرة:٨٢)؛ ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (الاسراء:٥٣).

وهذه الصياغة الواقعية والشمولية للوجود الإنساني قد شخَّصها الرسول الكريم: صلوات الله وسلامه عليه، فصار تبعاً لذلك القدوة المطلقة في السيرة والأخلاق، في مناشط الحياة الفردية والجماعية، ونموذجاً إنسانياً ربانياً وواقعياً للتصور القرآني ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:٢١)؛ فانتفت عن سلوكه مظاهر الإفراط والتفريط، في توازن واعتدال لا غلبة فيه لنشأة ـ مما عدّدنا ـ على أخرى، فكان عليه الصلاة والسلام يكره الرهبانية واعتزال الناس والحياة، وكان يتخذ الأسباب ولا يهملها، فتاجر طلبا للرزق، وهاجر من أذى الأعداء، وآخى الأوس والخزرج للانتصار بهم، وحارب قريشا للانتصار عليهم، وألّف قلوب الذين بذلوا له الوئام، وانتقم من أعدائه أشد انتقام، وقد اتخذ ـ صلى الله عليه وسلم ـ في السلم والحرب كل ما يلزم من الأسباب، فأعد الجيوش، وقاد الجموع، تارة مدافعاً وتارة مهاجماً، وأخذ من أموال الأغنياء فأعطى الفقراء، وكان يخصف نعله، ويعجن لفاطمة، ويسابق عائشة، وينهى عن الهروب من ساحة الحياة بدعوى التفرغ للعبادة والتبتل، فقد نهى عثمان بن مظعون عن التبتل الذي عزم عليه، حين عقد العزم على ترك النساء والطعام والطيب وكل ما يتلذذ به، فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم: "يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا، أما لك فيّ أسوة؟ فو الله إني أخشاكم لله، وأحفظكم لحدوده، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"[٤٥]

لقد كان من شأن هذه النظرة الواقعية، المتزنة المعتدلة، للوجود الإنساني، كما صورها القرآن الكريم وشخصها النبي الكريم بسلوكه، أن حفظت للشخصية المسلمة أمناً شعورياً تكامليا، واستقلالا ذاتياً، فشلت الأديان والفلسفات، ماضيا وحاضراً أن

---

٤٥ الإمام البخاري، كتاب النكاح، الحديث (١)، والإمام مسلم، كتاب النكاح، الحديث (٥).

تحققه. ويوم غابت هذه النظرة السوية للوجود الإنساني عن الأفهام والأذهان التي رانت عليها لوثة الفلسفات المادية الغازية والعقائد القديمة وتلفيقات الغنوصيات الغارقة في الروحانية المتهوّرة، وتنكب المسلمون منهج القرآن الكريم والاقتداء بالنبي الكريم، سقطوا صرعى النظريات الأحادية التي تضاد المنهج القرآني، فصار الصوفية إلى تغليب النشأة الروحية، فتصوروا الوجود الإنساني وجوداً روحيا خالصا فآثروا حياة الرهبنة والفرار من الدنيا، والسكن في المغاور والكهوف(ومن هنا عرفوا بالشكفتية التي تعني المغارة في الفارسية)، واستسلموا لحياة الجهالة والبطالة والعبثية، وأخلدوا للسكون والركود والخمود، واستبدلوا بحلقات العلم والمناظرة حلقات الرقص والإنشاد، وأوصوا الناس بالموت أربعاً[٤٦].

وعلى نحو مخالف للصوفية، فقد انصرف المتكلمون والفلاسفة في الإسلام تحت تأثيرات الفلسفة اليونانية والمدارس الغنوصية المسيحية وغير المسيحية، إلى صياغة تصورات غريبة عن الوجود الإنساني، جمعوا مادتها من أمشاج متخالفة مسترقة تارة من أفلاطون وأخرى من أرسطو، وانهمكوا في أبحاث لا طائل وراءها، واستغرقتهم مباحث مقطوعة الصلة بالمنهج القرآني، فصار شغلهم الشاغل البحث في كنه النفس البشرية وحقيقتها، وهل النفس سابقة في الوجود على البدن، أم مقارنة له، وأي جزء منها خالد باق لا يفنى، وأي جزء هالك فان[٤٧]، وكأنهم في صمم عن قول العزيز

---

٤٦ انظر كتابنا، **نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها** (بيروت: دار الجيل، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣)، الفصل الثالث، ص٣٩ وما بعدها، وقد وردت هذه المعاني في تعريفات الصوفية للتصوف، فقال التستري (ت ـ٢٦٠هـ): "التصوف قلة الطعام والفرار من الناس"، وقال أبو الحسين النوري (ت ـ ٢٩٥هـ): "التصوف كراهية الدنيا"، وقال أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي: "التصوف قطع الفيافي والقفار"، وقال أبو عثمان المغربي: "التصوف قطع العلائق ورفض الخلائق"، وقال الشبلي: "الزم الوحدة، وامح اسمك عن القوم، واستقبل الجدار حتى تموت"، وقال أبو حاتم الأصمّ: "من دخل في مذهبنا هذا فليجعل في نفسه أربع خصال من الموت: موتا أبيض وهو الجوع، وموتاً أسود وهو احتمال الأذى من الخلق، وموتاً أحمر.... وموتاً أخضر"، انظر في هذه التعريفات:
نيكلسون، **في التصوف الإسلامي وتاريخه**، مجموعة أبحاث، ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفي (القاهرة: ١٩٤٧)، ص٢٧ وما بعدها، وأيضاً: الدكتور أبو العلا عفيفي، **التصوف الثورة الروحية في الإسلام** (القاهرة: ١٩٦٣)، ص٢٧.

٤٧ عرفان عبد الحميد، **الفلسفة الاسلامية، دراسة ونقد** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م، ط٢)، الفصل الثاني: النفس الإنسانية في الفكر الإسلامي، ص٩٠ وما بعدها.

الحكيم ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٨٥). يقول سيمون فان دنبرغ في مقدمة ترجمته لكتاب ابن رشد (تهافت التهافت): "إن الفلاسفة اليونان وأشياعهم من المتفلسفة في الإسلام لم يحسنوا التعامل مع النفس الإنسانية، ولا أدركوا وحدة الأنا والشخصية الإنسانية، بل مزقوها أشلاء متفرقة، أما الإنسان الذي يحسّ ويشعر، يفكر ويتعقل، وله وجد وذوق، فذلك ما لم ينتبهوا له، ولا أدركوه"[٤٨].

ولو قيض لمثل هذه النظريات الأحادية الضيقة أن تسود وتعمّ الوسط الإسلامي والوعي الكلي للأمة لكان الهلاك الحضاري قد أدركنا من حيث لا نحتسب، إلاّ أنها بقيت تمثل شذوذات ونتوءات عارضة، واستمر الوعي الإسلامي، بنظرته الصفيّة، مشدوداً، قرباً، أو نأيا، بالتصور القرآني الجامع والشامل الذي حفظ ـ من بين أسباب أخرى ـ للمسلمين وجودهم المعنوي؛ ونظرتهم المستقيمة إلى الإنسان وجوداً ونشاطاً.

وبعد؛

فإن هذه الدراسة، ما قصدت أن تكون استقصاء كلياً وشاملاً لجميع المرتكزات التي حفظت لأمة القرآن الكريم وجودها المعنوي في التاريخ، بل استهدفت بيان بعض تلك الأسباب الخفيّة والقوة الباطنة، التي حفظت للأمة سلامة وجودها، وسط أمواج متلاطمة عاتية وقاسية من التحديات الخارجية والداخلية، وحمتها من التداعي والزوال، لعلنّا إن نحن أحسنا ابتعاثها والاستهداء بها والأخذ بنواصيها؛ نعود كما أرادنا الله تعالى: ﴿أُمَةً يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (الأعراف:١٨١).

---

48 Simon Van Den Berg: *Tahafut Al-Tahafut*, Eng, Trans, (Luzac and Compang lmt-1978) p:32.

وانظر قول الإمام محمد عبده: "الدين الكامل، علم وذوق، عقل وقلب، برهان وإذعان، فكر ووجدان"، **الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية** (القاهرة: ١٣٢٠هـ ١٩٠٢)، ص١٥٢.